الفصل الثانى

ابن زيدون فى عصره

١ — النشأة والمربى

وُلِدَ أحمد بن عبدالله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣م فى بيت من بيوت أعيانها وفقهائها ، فأبوه فقيه من سلالة بنى مخزوم القرشيين ، وجده لأمه صاحب الأحكام الوزير أبو بكر محمد[١] بن محمد بن إبراهيم ، وكلمة صاحب الأحكام تعنى أنه اشتغل بالفقه والقضاء .

فهو من بيت حَسَب ونَسَب ، وكان أبوه ثرياً صاحب أموال وضياع . ويقول المؤرخون عنه إنه توفى بالبيرة ، بالقرب من غرناطة ، فى توجهه إليها لتفقد بعض ضياعه. وحُمِلَ إلى قرطبة ، فدفن فيها ؛ وإلى ذلك أشار عبادة ابن ماء السماء شاعر قرطبة الكبير فى رثائه له ، فقال[٢] :

أىُّ رُكْنٍ من الرياسة هيضا ... وجَمومٍ[٣] من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى ... كى يوافوا به ثَرَاهُ الأريضا[٤]
مثل حَمْلِ السَّحابِ ماءً طيباً ... ليداوى به مكاناً مريضا

وتعبير عبادة بأنه « ركن من الرياسة » يدل فى وضوح على أنه كان من

---

(١) ديوان ابن زيدون (طبعة كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة) ص ١٥٢ .
(٢) نفح الطيب (طبعة ليدن) ٢/٤٣٠ .
(٣) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء ، وغيض مجهول غاض : نقص وقل .
(٤) الأريض : الزكى المعجب للعين .

رؤساء الدولة الأموية فى قرطبة . ويقول ابن الأبّار عنه : «كان أحد وجوه أصحاب ابن ذكوان وشيخ الخليفة سليمان ، وشُوورَ بقرطبة »[١] وسليمان هو سليمان المستعين الذى ولى الخلافة هناك من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤٠٧ للهجرة . وابن ذكوان هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضى القضاة بقرطبة حتى سنة ٤٠١ وكان يشاوره ويراجعه فى فتاويه وأحكامه ، كما كان مرجعَ غيره من القضاة وموضع مشورتهم .

واهتم هذا الفقيه العظيم بابنه منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له الأدباء والمثقفين ، ووصله بالعلماء والفقهاء من أصحابه ، وكان هو نفسه أول أساتذته ، إذ كان متفنناً فى ضروب العلم ، جَمّ الرواية والمعرفة باللغة والآداب . على أن تلمذته له لم تطل ، فقد توفى وابنه فى الحادية عشرة من عمره سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م .

ونظن ظنّاً أن ابن زيدون لزم صديق أبيه أبى العباس بن ذكوان ، وأفاد من علمه وفقهه ، فقد كان عالم قرطبة الأول فى عصره ، وامتدت حياته بعد أبيه إلى سنة ٤١٣ للهجرة . وهو غير أبى بكر بن ذكوان قاضى أبى الحزم جهور الذى رثاه ابن زيدون ، وظن غير واحد ممن كتبوا عنه أنه أستاذه ، وخلطوا بينه وبين ابن ذكوان الكبير[٢] ، وإنما كان صديقه ورفيقه فى التلمذة والدراسة وتوفى سنة ٤٣٥ هـ . ومن أساتذته المهمين أبو بكر مسلم بن أحمد[٣] ، وكان نحوياً أديباً متقدماً فى علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، وكان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق ، مجتهداً فى تبصيرهم ، متلطفاً فى ذلك ، فأعجب به ابن زيدون ، وعكف على دروسه ومحاضراته .

ومما لا شك فيه أن عقل ابن زيدون ليس من صنع هؤلاء الثلاثة وحدهم ،

---

(١) التكملة لابن الأبار ص ٤٤٦ .

(٢) صنع ذلك كور Cour فى كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ ونيكل Nykl فى كتابه عن الشعر الأندلسى ص ١٠٧ .

(٣) انظر ترجمته فى الصلة لابن بشكوال ص ٥٦٧ .

بل هو من صنع قرطبة وجامعتها الكبيرة ، وما كان يُلْقَى فيها من الدروس وضروب التعاليم ، إذ كان يختلف ، كغيره من شباب عصره ، إلى العلماء والأدباء هناك ، فينهل من معارفهم وثقافاتهم ، ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يشحذ به فكره ، ويصقل به لسانه ، وفى ذلك يقول مفاخراً :

ونجَّذنى علمٌ توالتْ فنـونُـهُ كما يتوالى فى النظام سِخابُ[1]

فهو يقول إن العلم صقله بفنونه المختلفة المتسقة كما يتسق سخاب ، وتنتظم أزهاره . وفى أشعاره ورسائله لُمَعٌ كثيرة من هذا العلم ، واقرأ فى رسالتيه الهزلية والجدية ترَ سيولَ المعارف التاريخية تفيض من كل صوب ، وتَرَ ثقافة شاملة بالدراسات الإسلامية والفلسفية . وبجانب ذلك ترى ركاماً من أمثال وأشعار تارة يقتبسها بنصِّها ، وتارة يفكها وينثرها فى أساليبه .

أما الشعر فلم يبلغ فيه ما بلغه فى رسالتيه الآنفتين من تمثيل معارفه وثقافاته ، ومع ذلك لا نزال كلما قرأنا فيه وجدنا أثر الدروس المنظمة التى تلقنها فى شبابه وما حشد فى ذهنه من فنون ، فلسفة وغير فلسفة ، يقول فى بعض شعره :

كان الرِّضـا وأعيـدهُ أن يُعْقِب الـكونَ الفسادُ

ويقول هاجياً :

عرَضْتَ لشعرى ولم تَتَّئِبْ[2] تعارضُ جـوهرَهُ بالعرَضْ

فهو يذكر الكون والفساد والجوهر والعرض مما يدل على ثقافته الفلسفية . وكانت ثقافته بالفقه والحديث واسعة ، ورثها فى بيته ، ونماها على أساتذة عصره ، ونراه يقول فى بعض مدحه :

مليكٌ يسوس الملكَ منه مُقَلَّدٌ روى عن أبيه فيه ما سَنَّه الجَدُّ

ويقول :

همامٌ أغرُّ رويتُ الفخـارَ حديثاً إلى سَرْوِهِ[3] مُسْنَداً

والسنة والتقليد والحديث المسند كل ذلك معروف بين أهل الحديث والفقه ،

---

(١) نجذنى : صقلنى وهذبنى ، والسخاب : قلادة تتخذ من أزهار عطرة ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شىء .

(٢) تتئب : تخجل .

(٣) السرو : الشرف .

ويظهر أنه درس علم الأصول فنحن نراه يقول لصديقه أبى حفص بن بُرْد :

ووادى لك نَصٌّ لم يخالفه قياسُ

يشير بذلك إلى ماهو معروف بين علماء الأصول من تقديم نَصّ الكتاب والسنة المتواترة على القياس العقلى فى الأحكام الفقهية ، وهو يقول إن النص والقياس جميعاً يتفقان فى وداده ولا يختلفان . وأكثر فى شعره كما أكثر فى نثره من ذكر الأمثال ، ويقول فى بعض مدائحه :

أغرُّ متى نَدْرُسْ دواوينَ مجدِه يَرُقْنا غريبٌ مُجمَلٌ أو مصنَّف

و « الغريب المصنف » كتاب فى اللغة لأبى عبيد القاسم بن سلام . وعلى هذه الشاكلة لا نزال نستقبل فى شعره من حين إلى حين بعض الإشارات الثقافية . وطَبَع رسائله خاصة بهذا الطابع ، فاضطر القدماء إلى أن يعالجوها بالشرح والبيان ، حتى يقربوها للأذهان ، وحتى يزيلوا ما فيها من غموض وإبهام .

٢ — حبه لولاَّده وسجْنه

ليس لدينا أخبار واضحة عن ابن زيدون فى أثناء الفتنة التى انتهت بسقوط الأمويين وقيام النظام الجمهورى فى قرطبة وعلى رأسه أبو الحزم جهور . وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو ضرب من الحدس والتخمين ، ويغلب على الظن أنه لم يقف مكتوف اليدين إزاء الحوادث التى مرت بها بلدته . وفى شعره ما يدل على أنه كان فى حاشية أبى الحزم حين نهوضه للأمر ، ولكن لا ندرى أكان موظفاً كبيراً أم كان شاعراً يتملق صاحبه قصائده ودرره الثمينة .

والأخبار اللامعة فى حياة ابن زيدون الأولى لا تطوف بحياة سياسية على العموم ، وإنما تطوف بصنمه ومعبوده ولادة بنت الخليفة المستكفى الذى كان واهناً متخلفاً ضعيفاً ، مقصراً عن خلال آبائه ، ويصفه أبو حيان مؤرخ الأندلس بأنه « كان مجبولا على الجهالة ، عاطلا من كل خلّة تدل على فضيلة ..

معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيمَ السر والعلانية ، أسير الشهوة عاهرَ الخلوة[١] »

وفى بيت هذا الخليفة نبَتَتْ ولادة ، وتدل أوصاف ابن زيدون لها على أنها كانت بيضاء البشرة ، ذات شعر أشقر[٢] ، ولعلها بنت «سكْرَى» المورورية الجارية الشريرة التى استبدت بالمستكفى ، والتى يصفها ابن حيان بأنها كانت خبيثة[٣] .

ويظهر أن أبا ولادة عُنِىَ بها ، فأحضر لها المعلمين والمثقفين ، ولم تلبث مواهبها أن استيقظت ، فتفتحت الزهرة التى نبتت فى تلك الشجرة ، وفاح منها أريج الشعر والفن . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها سنة ٤١٦ هـ/١٠٢٥م حتى يخلو لها الجو ، فما هى إلا عشية أو ضحاها ، حتى أصبح بيتها قِبْلةَ الأدباء والشعراء ، يقول ابن بسام : « وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يَعْشُو أهل الأدب إلى ضوء غُرّتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عِشْرتها ، إلى سهولة حِجابها ، وكثرة مُنتابها »

ولم تكن تصنع ذلك بوقار ، بل كانت تخلطه بدل وعبث واستهتار ، وصور ذلك ابن بسام فقال : « على أنها — سمح الله لها وتغمد زللها — اطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها ، كتبت — زعموا — على أحد عاتقى ثوبها :

أنا والله أصلحُ للمعالى ... وأمشى مِشْيَتِى وأتيه تِيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صَحْن خدى ... وأعطى قُبْلتى من يَشْتَهِيها[٤] »

فكان هذا العبث فيها ، وكان جمالها ، وكان شعرها ، وكان غناؤها

---

(١) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٢) النفح ٢/١٩٣ .

(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٧٦ .

إذ كانت تحسن الضَّرْبَ والإيقاع على الآلات الموسيقية ، كان كل ذلك يشعُّ حولها السحر والفتنة ، فتهوى إليها أفئدة الشعراء من قرطبة وغير قرطبة ، فلا تفتأ تتصبَّاهم ، وتُشعل فى قلوبهم نار الهوى والهيام .

وكان ابن زيدون أحدَّ من جذبتهم ولادة إلى فلَكها ، وكان لا يزال فى مَيْعة الشباب ، فلم تلبث أن وقعت فى أشراك حبه ، وبادلته هُيَاماً بهيام ، وأحسَّا كأن روحيهما تآلفتا ، بل لكأنهما احترقتا باظى العشق والغرام ، فقادا حياة محمومة بالحب ، ليس فيها حشمة ، وإنما فيها العنف والجرأة .

ووصف ابن زيدون أول لقاء لها ، فقال : « لما قُدِّرَ اللقاء ، وساعد القضاء ، كتبت إلىّ :

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلام زيارتى ... فإنى رأيت الليل أكْتَم للسرِّ
وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدا ... وبالليل ما أدْجَى[1] وبالنجم لم يَسْرِ

فلما طوى النهار كافوره[2] ، ونشر الليل عنبره[3] ، أقبلتْ بقَدَّ كالقضيب ، ورِدْف كالكَثيب ، وقد أطبقت نرجس المُقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مُدَبَّج[4] . وظل سَجْسَج[5] ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرُّ الطلِّ منثور ، وجَيْبُ الرَّاح مزرور ، فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا أليم ما بقلبه ، وبتنا بليلة نَجْنِى أقحوان الثغور ، فلما انفصلتُ عنها صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

ودَّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعَكْ ... ذائعٌ من سرِّه ما استودعكْ
يقرع السنَّ على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخُطَى إذ شيَّعكْ
يا أخا البدر سناءً وسنًى ... حفظ الله زماناً أطلعكْ
إن يَطُلْ بعدك ليلى فلكم ... بِتُّ أشكو قِصَرَ الليل معكْ[6]

---

(١) جن الليل وأدجى : أظلم .
(٢) كافوره : بياضه ، والاستعارة واضحة .
(٣) عنبره : سواده .
(٤) مدبج : منقوش مزين بالأزهار والنوار .
(٥) السجسج : الهواء المعتدل .
(٦) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧

وتتابع مثل هذا اللقاء فى حدائق قرطبة ذات الأشجار والأزهار المعطرة بالندى ، وقضيا هناك أوقاتاً طويلة يتعاطيان كئوس الخمر ، كما يتعاطيان كئوس الحب والصبابة ، وكل منهما مولَّه بصاحبه ، تغمره نشوة العشق . وحدث أن ألمّ بصاحبها ما جعله يفارقها إلى حين فكتبت إليه :

ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّق سبيلٌ فيشكو كل صَبٌّ بما لقِى
وقد كنت أوقاتَ التزاور فى الشّتا أبيت على جَمْرٍ من الشوق مُحرِقِ

فأجابها بقوله :

لَحَا اللهُ يوماً لستُ فيه بملتقٍ مُحَيّاكِ من أجل النّوَى والتفرقِ
وكيف يطيبُ العيش دون مسرَّة وأى سرورٍ للكئيب المؤرَّق

ورجعا إلى اللقاء وتشاكى الصبابة والهوى . غير أن ولادة لم تلبث أن تبدلت له ، فتمنعت عليه ، وأذاقته بعد نعيمِ قُرْبها جحيمَ هجرها ، فكان يلاطفها ، ويدلِّلها ، ويتمنى منها النظرة ، ويزعم لها أنه عَبْدُ حبها وأسير عشقها .

ولسنا ندرى سبب هذا التمنع إلا ما ساقه ابن بسام من أن ابن زيدون أشار إلى مغنيتها عُتْبة أن تعيد صوتاً غنته ، فغضبت ولادة غضباً يدل على حمقها وسوء خلقها ، إذ ظنت أنه يغازلها من دونها ، وسرعان ما أنشدت :

لو كنتَ تُنْصِفُ فى الهوى ما بيننا لم تهْوَ جاريتى ولم تتخيَّرِ
وتركتَ غصناً مثمراً بجماله وجنحتَ للغُصْن الذى لم يثمر
ولقد علمتَ بأننى بدرُ السما لكنْ دُهيتُ لشقوتى بالمشترى

ويسوق صاحب النفح سبباً ثانياً للقطيعة بين العاشقين ، إذ نقد ابن زيدون بيتاً لها قالته فيه ، وهو :

سقى اللهُ أرضاً قد غدتْ لك منزلا بكل سكوبٍ هاطل الوَبْلِ مغدقِ

معتلا بأن النقاد لاموا ذا الرُّمَّة لقوله :

ألا يا اسْلَمِى يا دارمَىَّ من البِلَى ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائك القَطْرُ

مع تقديم الدعاء بالسلامة . فقد زعم النقاد بأن هذا أشبه بالدعاء على

المحبوب من الدعاء له ، وإنما المستحسَن قول الشاعر :

فسقى ديارَكِ غير مُفسدها صَوْبُ الربيع وديمةٌ تَهْمِى[١]

ولم يكن ابن زيدون لبقاً فى إيراد هذا النقد على أذن معشوقته ، فازورَّت عنه ، ولم تعد تغدو معه إلى الرياض والأشجار والأزهار ، فقد اكتفت بأزهار الهجر السامَّة . وبكى الشاعر ، وأنّ ، ولم ينفعه بكاؤه ولا أنينه .

ويعقد الباحثون فى الأدب الأندلسى مقارنات بين حبهما وحب لآخرين ، فدوزى يقرن حبهما إلى حب الشاعر اللاتينى تيبولس Tibullus وصاحبته ديليا Delia ، ويقرن نيكل حبهما إلى حب جورج صاند وألفرد دى موسيه[٢] . وردَّ كور فى كتابه عن ابن زيدون المقارنة الأولى ، وقال إن وجه المقارنة الممكن هو فى مظاهر حياة الشاعرين إذ فقد كل منهما وطنه ولم يكن موفقا فى حبه ، أما الظواهر الأدبية عندهما فمختلفة[٣] .

على كل حال انصرفت ولادة عن عاشقها الشاعر الناقد الذى لم يملأ غرورها الفنى ، والذى اعتدى على سلطانها الأدبى . ولم تنتظر طويلا لتجد عاشقاً جديداً ، فقد كان العشاق كثيرين ، ولكنها اختارت من بينهم هذه المرة لا شاعراً عاطفيًّا كبيراً ، بل وزيراً خطيراً هو أبو عامر بن عبدوس . وروى ابن بسام هذا التحول إليه ، فقال إنها « مرت به وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقذار ، وقد نشر أبو عامر كمَّيْه ، ونظر فى عِطْفيه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له : أبا عامر :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفَّقا ، فكلاكما بحرُ

فتركته لا يُحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً » . وسرعان ما تبعها ، وتبادلا العشق والغرام ، ولم تُجْدِ ابن زيدون توسلاته لمعشوقته وتضرعاته ، وحاول أن يسعى

---

(١) النفح ٢/٥٦٤ .
(٢) نيكل ص ١٠٦ .
(٣) كور ص ١٣٤ .

إليها من قبل ابن عبدوس ، فكتب إليه قصيدة ينذر ويتوعد ، افتتحها بقوله :

أثرْتَ هِزَبْرَ[١] الشَّرَى إذ رَبَضْ ونَبَّهته إذ هَدَا فاغتمضْ
وما زلتَ تبسطُ مسترسلا إليه يَدَ البَغْى لما انقبضْ
حذارِ حذارِ فإن الكريمَ إذا سيم خَسْفاً أبى فامتعض
فإن سكوتَ الشجاع النَّهو[٢] س ِ ليس بمانعه أن يَعَضّ

واستمر يحذر ويعاتب ، ويلين ويعنف . ولم يستمع ابن عبدوس إلى تحذيره وعتابه ، وأيضاً لم تستمع ولادة إلى ما شكاه من آلامه وتباريح حبه ، فماذا يصنع ؟ لقد عرف أن ابن عبدوس يستخدم فى مراسلاته سيدة تزينه فى عينى صاحبته ، وأنهما يتراسلان كثيراً عن طريقها ، فكتب إلى ولادة رسالة طويلة تُعْرَفُ بالرسالة الهزلية سخر فيها على لسانها من ابن عبدوس سخرية مرة ، وتوسل إليها أن ترسلها إليه ، حتى تقطع العلائق التى نشبت ، والوشائج التى التحمت . وغضبت ولادة وحنقت عليه حنقاً شديداً ، وهجته ببيتين قبيحين ، وصفته فيهما بأوصاف خبيثة . ولم يلبث ابن عبدوس وبعض خصومه أن نسبوا إليه أنه يشترك فى مؤامرة على السلطان وتصادف أن اتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته ، فوضعت فى يديه الأغلال ، وقُدِّم إلى المحاكمة .

وكان القاضى الذى تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى الذى ولى قضاء قرطبة فى المحرم من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وكانت بينه وبين الشاعر موجدة قديمة ، ويقول ابن سعيد فى المغرب إنه «استخف بكثير من وجوه الناس»[٣] فلما عرضت عليه قضيته أمر تواً بسجنه وشدَّد فيه .

وكتب الشاعر من سجنه قصائد بديعة يناشد فيها أبا الحزم جهوراً أن يعفو عنه ، وأن يرعى حرمته منه ، وأن لا يستمع إلى ما قاله الوشاة :

أثِنْ زعم الواشون ما ليس مزْعما تَعَذَّرُ[٤] فى نصرى وتَعْذِرُ[٥] فى خذلى

---

(١) الهزبر : الأسد .

(٢) الشجاع هنا : ضرب من الحيات ، والنهوس : العاض .

(٣) المغرب فى حلى المغرب (طبعة دار المعارف) ١٦٠/١ .

(٤) تعذر : لا تجد عذرا .

(٥) تعذر : تلتمس عذرا .

ولو أنني واقعتُ عمداً خطيئةً لما كان بدعاً من سجاياك أن تُملي
فلم أستترْ حربَ[1] «الفجار» ولم أطع مُسَيْلمةَ[2] إذ قال إني من الرُسْلِ
ومثليَ قد تهفو به نشوةُ الصبا ومثلك مَنْ يعفو ومالك من مِثْلِ
وإنِى لتنهاني نُهاى عن التي أشاد بها الواشي ويَعْقلُني[3] عَقْلي

ولم يكتف ابن زيدون بأشعاره وقصائده الطنانة، فدبج رسالة إلى أبي الحزم تشتهر باسم الرسالة الجِدِّية يستعطفه فيها ، وكأنما كان في أذني الوزير وَقْرٌ أو صَمَمٌ ، فذهب يقول :

قل للوزير وقد قطعتُ بمدحه زمناً فكان السجنُ منه ثوابي
لم تُخْطِ في أمري الصوابَ موفقاً هذا جزاءُ الشاعر الكذّاب

وتحول إلى أبي الوليد بن أبي الحزم يمدحه ، ويتخذه وسيلة إلى أبيه لعله يعفو عنه أو يصفح ، ولكن ذنبه كان عظيماً ، فلم تنفتح مغاليق سمع أبي الحزم ، وعبثاً توسل ابن زيدون بكاتبه الكبير وصديقه ابن بُرْد ، فقد كان الجميع يرهبون أن يجرى اسمه على لسانهم . ولما انسدت أمامه جميع الأبواب صمم على الهروب من هذا الشقاء ، ففرَّ من سجنه ليلة عيد الأضحى ، وظل في ضواحي قرطبة يضرع إلى أبي الحزم أن يغفر له ما قدَّم مستعيناً بأستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد . وأخيراً عفا عنه أبو الحزم ، وربما كان لابنه أبي الوليد الفضل الأول في ذلك ، إذ كان ابن زيدون صديقه ، وكان قريباً من نفسه .

وفي هذه الأثناء لم ينقطع حبه لولادة ، بل ظل يذكرها ويعاتبها على ما كان من هجرها ، بل من غدرها وعدم وفائها ، وبيعها لحبه بيعة بخس ووكس ، وهو يفصح عن ذلك في لهفة وحرقة وحنين وشجى بالغ ، ومن خير الأمثلة التي تصور قروحه وجروحه النفسية حينئذ قصيدته التي أرسلها إليها بعد خروجه من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية ، وفيها يقول :

بِنتُمْ وبنا فما ابتلت جَوَانحُنا شوقاً إليكم ولا جَفَّتْ مآقينا

---

(١) حرب الفجار : كانت في الجاهلية بين قريش وبني عامر ، إذ انتهك الأخيرون حرمة الحرم وقدسيته .

(٢) مسيلمة : متنبىء قتل في حرب الردة . (٣) يعقلني : يمنعني .

٣ — فى بلاط أبى الوليد بن جهور

حظى الشاعر بأمر العفو عنه ، فلزم أبا الوليد بن جهور يمدحه ، كأنه يريد أن يرد معروفه وجميله إليه، فانعقدت بينهما حبال مودة أكيدة ، وتوثقت عُرًا صداقة متينة . وكان الشاعر فى أثناء ذلك يمدح أبا الحزم بالخلق المتين والسياسة الرشيدة ، والمحتد الشريف ، والرأى الحصيف :

ولم يلبث أبو الحزم أن توفى سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م وخلفه أبو الوليد ابنه ، فعينه للنظر على أهل الذمة ، ثم رفعه إلى مرتبة الوزارة ، فعلا نجمه وحلق فى السماء . وذهب يضفى عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده ، ومن بديع شعره فيه :

مَلِكٌ لذَّ جَنَى العيشِ بـه حيث وِرْدُ الأمن للصَّادى عَلَلْ
يا بنى جَهْوَرٍ الدنيـا بـكم حليتْ أيامُها بعد العطَـلْ
إنمـا دولتُـكم واسطـةٌ أهدت الحسنَ إلى عِقْدِ الدول
نحـن من نَعْمائـكم فى زهرةٍ جَدَّدَتْ عهدَ الربيـع المقتَبل
طاب كانونٌ لنـا أثناءهـا فـكأن الشمس حَلَّتْ بالحمَلْ
زَهرتْ أخلاقُـكم فابتسمـتْ كابتسام الورد عن لؤلؤِ طَـلّ

وتفيض أشعاره فى أبى الوليد بالإخلاص . وقابل أبو الوليد هذه الأشعار باتخاذه سفيراً له بينه وبين ملوك الطوائف ، لعله ينسى حبه الذى كان يعرف أنه لا يزال متقداً بين جوانحه ، أو لعله يتسلى عن هواه . وكان ذلك سبباً فى أن اشتهر اسمه ، وكثر أصدقاؤه بين ملوك عصره وشعرائهم ، كما كثر فى ديوانه تشوقه إلى قرطبة ومعاهدها وهو غريب عنها تارة فى مالقة وتارة فى بطليوس أو فى بلنسية أو فى طرطوشة ، وفيها يقول متشوقاً إلى وطنه :

غريبٌ بأقصى الشرق يشكر للصَّبا تحمّلها منه السلامَ إلى الغربِ
وما ضرَّ أنفاسَ الصَّبا فى احتمالها سلامَ هَوًى يُهديه جسمٌ إلى قلب

ويدور فى ديوانه شعر يتصل بهذه السفارات والرحلات ومن تعرّف عليهم

من الملوك والوزراء ، وقد أعجب خاصة بابن عبد العزيز صاحب بلنسية ، وفيه يقول :

مهما ذممتُ فما زما ... نى فى ذمامك بالذمِمْ
زَمنٌ كمألوف الرضا ... ع تشوق ذِكْراه الفَطِم
الله يعلم أن حُبَّ ... ك من فؤادى فى الصمِيم
ولئن تحمَّل عنك لى ... جسمٌ فعنْ قلبٍ مقيم

وعلى شاكلة ما يذكر ابن عبد العزيز ، ويثنى عليه ، يذكر المظفر صاحب بطليوس ، ويثنى عليه وعلى آبائه وكريم ضيافته له وحسن استقباله(١) .

ولم تنسه هذه الرحلات والسفارات حبه ، ولا شغلته عن هواه ، فهو دائم الحنين والتلهف على البعد كشأنه فى القرب ، لا يستطيع أن ينسى ، ولا أن يشغل قلبه بغير صاحبته التى نفرت منه ، وأغلقت أبوابها دونه ، وإنه ليذكرها فى كل مكان ، فيقطر قلبه عشقاً وصبوة ، وأسى وحسرة ، يقول وهو فى بطليوس :

خليلىَّ لا فِطرٌ يَسُرُّ ولا أضْحَى ... فما حالُ مَن أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقنى (شرقُ(٢) العُقاب) فلم أزل ... أخصُّ بممحوض الهوى ذلك السَّفْحا
وما انفك (جوفىُّ الرصافة) مُشْعِرى ... دواعىَ ذكرى تعقبُ الأسفَ البَرْحَا
وليس ذميما عهدُ (مجلسِ ناصح) ... فأقبلَ فى فَرْطِ الولوع به نصحا

وعلى هذا النحو لم يستطع أن يغرق فى لجج رحلاته عذاب حبه ، وألم عِشقه . على أن العلاقة لم تلبث أن اضطربت بينه وبين أبى الوليد وسرعان ما رحل عنه إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، ويحار من بحثوا ابن زيدون فى سبب رحيله عن صاحبه . ولكن فى الديوان قصيدة على رأسها هذه العبارة « وقال عند نكبة بنى ذكوان وابن حذام فى سنة ٤٤٠ هـ » وفى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ترجمة لأبى على حسن(٣) بن محمد بن ذكوان قاضى أبى الوليد، وفيها أنه « خلَّطَ فى مهاودة ابن عمه أحمد بن محمد بن ذكوان والرُّهَيْط الذين سعوا فى الوثوب على السلطان بقرطبة فعزله أبو الوليد فى صدر

(١) الديوان ص ٢٢٧ .
(٢) ما بين أقواس أسماء مواضع كن يرتادها مع صاحبته .
(٣) انظر المغرب فى حلى المغرب (طبع دار المعارف) ١/ ١٦٠ .

ربيع الأول سنة أربعين وأربعمائة ، وألزمه منزله » .

فهذه النكبة التي نظمت قصيدة ابن زيدون بصددها إنما كانت ثورة على أبي الوليد ، ومن يقرأ القصيدة يستطيع أن يرى الشاعر فيها مضطرباً قلقاً ، يحاول أن يبرئ ساحته من إثم هذه الجماعة الثائرة ، حتى ليقول :

ماللمَتاب الذى أحْصَفْتُ[1] عُقْدَتَهُ   قد خامرَ القلبُ من تضييعه جزَعُ

وأكبر الظن أنه قد اتضح سببُ رحيل ابن زيدون عن قرطبة ، فقد جفاه أبو الوليد بعد ثورة أصدقائه من بنى ذكوان ، وأحاطت به بعضُ الشبه ، فانبرى فى قصيدته ينفيها ، ولكن ما بينه وبين صاحبه كان قد قُطع ، ففكر فى الرحيل ، وتذكَّر إشبيلية وصاحبها المعتضد الذى كان يجذب الشعراء والأدباء إلى بلاطه ، فكاتب أبا عامر بن مَسْلمة القرطبي الشاعر الأديب ، الذى هاجر من قبله إليه ، وندبه ليعرض خدماته عليه ، فلما علم المعتضد برغبته فى المثول بحضرته رَحَّبَ به ، لما يعلم من كياسته ومواهبه ، وأرسل فى طلبه[2] .

٤ — فى بلاط بنى عباد

خرج ابن زيدون من قرطبة بعد أن ضاق بها وبعد أن أصبحت فى عينيه كأنها القبو المظلم ، فقد انطفأ المصباح الأخير فى القَبْو ، مصباح أبى الوليد بن جهور ، ولم يعد يرى إلا ظلمات بعضها فوق بعض . فتلمس الهروب ، وتلمس الطريق ، وبينما هو كذلك لمح نور المعتضد من بعيد ، فتسلل مسرعاً إليه ، قاطعاً المفاوز والمراحل . وعلم المعتضد بقدومه ، فتلقاه فى وزرائه وأعيان بلده وقضاته وشعرائه ، واحتفل به احتفالا رائعاً ، وأفاض عليه الخلع السوابغ وألقى إليه بمقاليد وزارته ، وضم إليه جميع أمور دولته ، وكأنه رأى فى تحوله إليه تحول قرطبة كلها إلى سلطانه .

ونزل ابن زيدون فى بيت صديقه أبى عامر بن مسلمة ، وكان مشغوفاً بالرَّاح ، مثل أميره المعتضد ، وله ألف كتاباً فيها سماه « حديقة الارتياح فى

---

(١) أحصفت : أحكمت .

(٢) انظر فى ذلك الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ وما بعدها .

وصف حقيقة الراح » وأترع لابن زيدون كئوسه منها ، ونظما معاً مقطعات مختلفة فيها ، من مثل قول ابن زيدون مخاطباً له :

أدِرْها فقد حَسُنَ المجلسُ وقد آن أن تُتْرَع الأكْؤُسُ
ولا بأس إن كان ولّى الربيعُ إذا لم تجد فَقْدَهُ الأنفسُ
فإن خلال أبى عامرٍ بها يَحْضُرُ الوَرْدُ والنرجس

ولم يستطع ابن زيدون أن يجارى صاحبه ، فابتعد عنه ، وكان ذلك سبباً لتلاوم نشب بينهما ، غير أن ابن زيدون اعتذر لصديقه بأن معاقرة العُقار تضرّه ، وأن الخمر تبرح به ، وذكر أنه لا ينسى له نعيم عيشه عنده وساعات لهوه[1]

وتبوّأ مجلسه ووزارته بالقرب من المعتضد ، ولزم حوْمته واتصل بسياسته ، وصدر عن قوسه فيما يُحِلُّ ويُبرم ، ويعقد ويعزم ، ناثراً فوق تاجه درر شعره وأزهار فنه ، وربما كانت قصيدته الفائية فيه خير مدائحه جميعاً ، وفيها يقول :

همامٌ يَزيـن الدهرَ منه وأهلَـه مليكٌ فقيـهٌ كاتبٌ متفلسفُ
يَتيـه بمَـرْقاه سريـرٌ ومنـبرٌ ويحمـد مسعاه حسامٌ ومصحف
مُـمِرُّ القُوَى[2] لا يملأ الخطبُ صدره وليس لأمرٍ فائتٍ يتلهّف
جحيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقـوده وجنـةُ عَدْنٍ للمطيعين تُزْلَفُ

ولم يترك مناسبة عيد ولا غير عيد إلا انتهز الفرصة لمدح المعتضد وبيان سياسته الحصيفة وحروبه المظفرة على خصومه ، وتصادف أن كان المعتضد سعيد الطالع فى وقائعه وغزواته ، فأكثر من تهنئته ونثر الرياحين أمام مقدمه.

وما زال فى المكان الرفيع منه حتى توفى المعتضد سنة ٤٦١ للهجرة ، وخلفه ابنه المعتمد ، فحاول حساده أن يبعدوه عنه ، ولكنه انتصر عليهم ، إذ قربه منه المعتمد ، بل رفعه إلى الذروة من مشورته ووزارته . ولما حاول غزو قرطبة مسقط رأسه كان جل اعتماده عليه .

وسارت حياة ابن زيدون فى عهد المعتمد سيرة كلها مسرة وهناءة ، فليس

---

(١) النفح ٢/١٨٦ .
(٢) ممر القوى : مستحكم القوى مكتملها .

هناك ما يكدر صفاء عيشه إلا بعض أمراض تطوف به ، أما ماعدا ذلك فكان كله لحظات لهو وطرب ، ويكفى أنه كان فى إشبيلية ، بلدة الخمر والموسيقى والغناء ، وأنه كان فى بلاط المعتمد الذى اجتمعت فى قصوره زينة الدنيا ومباهجها ، حتى لكأن حياته ، سوى أيام حربه ، انتظمت حفلات ، وكأن لياليه اتسقت «كرنفالات» وفى الديوان مقطوعة يشوّقه ابن زيدون فيها إلى تعاطى الحميّا فى قصريه « المبارك والثريا » .

وطبيعى أن يسوق المعتمد ووزيره ابن زيدون ووزراؤه الآخرون وكل من اتصل بهم وعاش معهم فى بلدتهم حياة لاهية ، فقد دانت لهم دنيا الأندلس ، وأصبح المعتمد كبير ملوكها ، يحكم أكثر مدنها وبلدانها . ولكن الوشاة والحساد لا يزالون يلاحقون ابن زيدون ، وينفسون عليه مكانته وحظوته من المعتمد ، فبينما هو معه فى قرطبة ثارت العامة على اليهود فى إشبيلية ، فأشار منافسوه ، وخاصة ابن عمار وابن مرتين ، على المعتمد أن يرسل ابن زيدون لتهدئة الثورة . وكانت السن قد تقدمت به ، وكان يشعر بمرض أخذ يلم بجسمه الواهن الضعيف ، ولكنه خضع لأمر المعتمد ، ولم يكد يصل إلى إشبيلية ، حتى ثقل عليه مرضه ، وسرعان ما لبّى نداء ربه فى الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة .

ولم يغفل ابن زيدون فى هذه الحقبة الأخيرة من حياته عن ذكر معشوقته القديمة ، بل كان دائم الوله بها ، فروحها هى التى يناجيها فى مطالع قصائده للمعتضد والمعتمد ، وكان يخصها بكثير من المقطوعات ينظمها من حين إلى حين ، وكان لا يزال يذكر ليلتها الأولى معه ، فقد بات بإحدى جنّات إشبيلية ، فقال :

وليلٍ أدَمْنا فيه شُرْبَ مدامةٍ ... إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثيرُ
وجاءت نجومُ الصبح تضرب فى الدجى ... فولّتْ نجومُ الليلِ والليلُ مقهور
فحُزْنا من اللذات أطيبَ طيبها ... ولم يَعْرُنا همٌّ ولا عاق تكديرُ
خلا أنه لو طال دامتْ مسرتى ... ولكنْ ليالى الوَصْلِ فيهن تقصيرُ

فذكرى لياليها دائماً كانت فى ذهنه ، وكان اسمها دائماً على لسانه ، وكان لا يزال يَرِنُّ فى سمعه ، كما كان محيا وجهها لا يزال يتراءى له فى يقظته وفى أحلامه ، وما زال وفيًّا لعهدها ، بارًّا بحبها ، حتى قرع القضاء بابه ، ولفظ أنفاسه .